الفصل الخامس عشر

دور العملاء فى محاربة الفصحى

بعد أن باشر « الأجانب » اعتداءاتهم على اللغة العربية الفصحى على النحو الذى تقدمت الإشارة إليه ، حمل الراية من بعدهم عملاء منا نحن العرب ، والمسلمين ، وأخذوا يروِّجون لتلك الدعاوى المسمومة بكل ما أوتوا من وسائل . وهم فيما رددوه من بعد لم يخرجوا قيد أنملة عن الخطة التى وضعها « الأجانب » من قبل ، وإن توسَّعوا فى الدعوى ، وأطنبوا فى الضجيج ..

وليأذن لنا القارىء أن نوجز الحديث عن صور العداء للغة العربية الفصحى فى أعمال العملاء وتلاميذ المبشِّرين والمستشرقين وعبيد الحضارة الغربية وسماسرة الاستعمار .

بدت صور ذلك العداء فى الآتى :

* التعصب للعامية ضد الفصحى والدعوة لإحلالها محل الفصحى ؟!

* كراهية الخط العربى والدعوة للكتابة بالحروف اللاتينية ؟!

* التآمر على اللغة العربية الفصحى وترويج الإشاعات ضدها بالصعوبة والجمود والقصور عن الوفاء بحاجة التعبير ؟!

* المناداة بإصلاح اللغة العربية الفصحى وتعديل قواعدها وتطوير أساليبها لتساير العصر وتواكب التقدم الحضارى الأوروبى ؟!

هذه هى صور العداء التى لفَّ ودار حولها عملاء الغرب ؛ وتلاميذ المبشِّرين والمستشرقين ، وعبيد الحضارة الغربية فى كل شكل من أشكالها .

ومن الحقائق الجديرة بالانتباه إليها أن هؤلاء العملاء لم يكونوا أكثر من « ببغاوات » يرددون ما قاله أسيادهم من قبل . ولم يأتوا بجديد من « عندياتهم » فكانوا - بحق - صدىً لأصوات مَنْ ذكرناهم من قبل - نصارى لبنان وعملاء الاستعمار الفرنسى فى لبنان ، والإنجليزى فى مصر - مع ملاحظة أن الصورة الأخيرة من العداء ، وهى المناداة بإصلاح اللغة العربية الفصحى ، كانت هى الأداة التى مارسوا بها الهدم ، أو المنفذ الذى تسللوا من خلاله للنَيْل من الفصحى بشعارات زائفة لها ظاهر برّاق ، وباطن شديد القتامة والإظلام .

ثم سار العملاء فى طريقين :

أحدهما : الدعوة إلى جعل العامية لغة كتابة ، وفن وتأليف وأدب . ومن هؤلاء توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وسلامة موسى وغيرهم .

والآخر : اتجه اتجاهاً علمياً أعمق جذوراً من سطحية الدعوة إلى العامية . ومن هؤلاء الدكتور طه حسين ، وأستاذه أحمد لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى وبعض أساتذة الجامعات .

والاتجاه الأول لم يلق رواجاً إلا فى بعض الأعمال الفنية فى ذلك الوقت . أما الأن فصارت العامية لغة الفن التمثيلى كله على مختلف مسمياته .

أما الاتجاه الثانى (العلمى) فقد راج فى دور التعليم ما قبل الجامعى حيناً من الدهر ، وما تزال آثاره باقية إلى الآن . وإليك بعض النماذج مما اختطته معاول الهدم والتدمير فى هذا المجال . ولنبدأ بالمحاولات الهزيلة « المضحكة » التى ثرثر بها أحمد لطفى السيد الملقب بأستاذ الجيل .

* *

● مضحكات أحمد لطفى السيد :

كان الدور الذى قام به أحمد لطفى السيد ترجمة لما ردده بعض المصريين تحت الشعار الخادع : تيسير اللغة العربية الفصحى ، وهذه الفكرة كانت تعتمد على عدة محاور أبرزها اثنان :

الأول : يتعلق بالكتابة نفسها ، وظهر فى هذا الصدد اقتراحان :

أحدهما : هَجْرُ الرسم العربى والاستعاضة عنه بالحروف اللاتينية كما تقدَّم . وقد وُئِدَ هذا الاقتراح وعورض حتى يئس منه المطالِبون به .

والاقتراح الآخر : هو الدعوة إلى كتابة الكلمة العربية حسب النطق بها لا حسب القواعد الإملائية والضبط بالشكل لكل حروف الكلمة ، ما عدا الحرف الأخير الخاضع لعوامل الإعراب .

أما المحور الثانى : فكان يسعى للتخلص من حركات الإعراب التى يخضع لها الحرف الأخير من الكلمة ، القابل لظهور تلك الحركات .

وقد دعا الذين حملوا لواء تيسير اللغة أو إصلاحها إلى « تسكين » أواخر الكلمات مطلقاً أفعالاً وأسماءً سواء أكانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وهذا خاص بالأسماء دون الأفعال .

والذى لهج به أحمد لطفى السيد هو الكتابة حسب النُطق وزعم - كغيره - أن فى هذا إصلاحاً للغة وتيسيراً . مع ملاحظة أن هذه الفكرة كانت تستلزم تحويل الحركات إلى حروف من نوعها تدخل فى جسم الكلمة . فمثلاً كلمة « ولد » مكونة من واو مفتوحة ، ولام مفتوحة كذلك ، ودال خاضعة لعوامل الإعراب ، فإذا قدَّرنا « ولد » مرفوعاً هنا فإن أحمد لطفى السيد يدعوك إلى أن تكتبه هكذا : « والادون » فتصبح الكلمة ، مكوَّنة من سبعة أحرف بدلاً من ثلاثة أحرف ؟! ولك أن تسأل : من أين جاءت الأحرف الأربعة يا تُرى ؟ والجواب : أن الفتحة : التى على الواو صارت ألفاً ، والتى على اللام صارت

ألفاً كذلك . وإن الضمة التى على الدال صارت واواً . أما النون فهو عبارة عن التنوين الذى تقضى قواعد الإملاء الصحيحة أن التنوين يُنطَق ولا يُكتَب . وهذا هو الفرق بين النون والتنوين ، هذا هو الإصلاح أو التيسير الذى نادى به أحمد لطفى السيد مردداً ما ذهب إليه أنيس فريحة ، اليسوعى من قبل ، ولك أن تجرِّب طريقة لطفى فى غير ما تقدَّم من الكلمات لتقف على ما يُضحك ويُبكى فى آن واحد .

* *

● تلميذه البار :

أما تلميذ أحمد لطفى السيد البار - وهو الدكتور طه حسين - فقد كان شديد اللهج بهذا الاقتراح العبقرى . فما دامت الدعوة إلى الكتابة بالحروف اللاتينية لم تجد قبولاً عند أحد . فلا بأس من بقاء الخط العربى ، ولكن شريطة أن يُلغَى الشكل إلغاءً تاماً سواء أكان فى أواخر الكلمات أو فى بنيتها وجسمها . وهم فى ذلك يسعون جاهدين لحمل اللغة العربية على قواعد اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية ؛ فهذه اللغات تضطر فى ضبط كلماتها برسم الحركات حروفاً فى جسم الكلمة : الضمة والفتحة والكسرة ، فتُرسم الضمة عندهم بما يقابل الواو مثل : (O - U) ، والفتحة بما يقابل الألف مثل : (A) والكسرة بما يقابل الياء مثل : (ei - ie) وهكذا .

والعجيب أن الدكتور طه حسين فى حملته على اللغة العربية فى كتابه : « مستقبل الثقافة فى مصر » يقرر أن هذه الطريقة التى دعا إليها أستاذه أحمد لطفى السيد تُوفِّر الوقت والجهد والمال فى الكتابة باللغة العربية ، وتضمن صحة الكلام بدون الاحتياج إلى قواعد النحو والصرف . وهذه دعوى فارغة يدّعيها الدكتور طه حسين ، وفيها - مع ذلك - خطأ علمى فاحش ، أما أنها دعوى فارغة فأمامى الآن صحيفة الأهرام الصادرة بتاريخ ١١ رجب ١٤١٠ هـ (الموافق ٧ فبراير ١٩٩٠ م) وسننقل منها كلمات (فقرة) ثم نعيد كتابتها على

الطريقة المقترحة . ثم ننظر هل هى موفرة للوقت والجهد والمال وعاصمة من الخطأ بدون نحو وفيها إصلاح للغة كما يقول الدكتور طه ؟

والعبارة هى : « وأضاف أن الفرصة ما زالت سانحة لبذل الجهود لعقد لقاء فلسطينى - إسرائيلى » من خبر بعنوان : « عصمت عبد المجيد فى جدة » ، الصفحة الأولى .

هذه العبارة شغلت سطراً واحداً على إمتداد عمودين من الصحيفة . كما شغلت هنا سطراً واحداً مكوناً من إحدى عشرة كلمة فتعال نكتبها على الطريقة التى اقترحها لطفى وتحمس لها طه :

« وا أضافا أنّنا لفورصات ما زالات سانيحا تان ليباذلى لجيهودى ليعاقدى ليقائين فيلسطينيين - إيسرائيلييين » ، وبمقارنة سريعة بين الطريقتين نجد العبارة موضوع الاختيار زادت أحرفاً فى الطريقة المقترحة تزيد عن ثلاثين حرفاً أى ما يعادل ست كلمات كل كلمة مكوّنة من خمسة أحرف . يعنى أن كل سطرين بالكتابة المعهودة يزيدان سطراً كاملاً مع أن المعنى واحد . ومعنى هذا أن صحيفة مثل الأهرام تصدر فى عشرين صفحة يومياً بالكتابة المعهودة إذا حُرِّرت بطريقة أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد فهى مضطرة أن تصدر فى ثلاثين صفحة يومياً والمادة الصحفية هى هى لم تزد شيئاً ؟!

وإذا كانت أجهزة الأهرام على مختلف أنواعها تصدر صحيفتها المكوّنة من عشرين صفحة يومياً فى ساعات عمل تبلغ عشر ساعات مثلاً فإنها مضطرة إلى إضافة خمس ساعات أخرى فتصبح ساعات العمل خمس عشرة ساعة يومياً .

وإذا جئنا إلى حساب الورق : فإذا كانت الأهرام بوضعها الحالى تستهلك تسعمائة رزمة ورق مثلاً فإنها مضطرة إلى أن تضيف إليها ثلاثمائة رزمة ورق أخرى مقابل العشر الصفحات ، وهو العبء الجديد الذى يُحمِّلها إياه أستاذ

الجيل أحمد لطفى السيد وتلميذه عميد الأدب العربى طه حسين . والأهرام بعد ذلك بالخيار بين أن تبيع النسخة لقرائها بثلاثين قرشاً فيقل عدد القراء ، أو تضحى بالعبء الجديد فتخسر .

ونسأل مرة أخرى : أين توفير المال والوقت والجهد الذى توهمه الدكتور طه وهو يدعو لإصلاح الكتابة على طريقة أستاذ الجيل والمستشرقين والمبشِّرين والقُوَى الاستعمارية المعادية للإسلام وحضارته ؟

أما الخطأ العلمى فإن الدكتور طه يعلم أن الحركة عبارة عن نصف الحرف الذى من نوعها بمقياس الزمن : فالضمة نصف الواو ، والفتحة نصف الألف ، والكسرة نصف الياء . فإذا حوَّلنا الحركة إلى الحرف الذى من نوعها فهذا إسراف وليس إصلاحاً للكتابة أبداً فخذ إليك - مثلاً - كلمة « محمد » فإذا رسمناها على طريقة أستاذ الجيل صارت : « موحامادون » فى حالة الرفع ، و « موحامادان » فى حالة النصب ، و « موحامادين » فى حالة الجر . فبعد أن كانت كلمة « محمد » مكوَّنة من أربعة أحرف فى الرسم أحدها مشدَّد (مدغم) صارت على طريقة أستاذ الجيل مكونة من عشرة أحرف بزيادة ستة أحرف على الأصل . وترتب على ذلك إطالة زمن النطق ثم زادت المساحة الورقية التى تلزم لكتابتها (؟!) أليس هذا إسرافاً لا إصلاحاً ؟ والتعبير بالحرف ، وهو يستغرق ضعفى الزمن اللازم لنطق الحركة خطأ علمى شنيع (؟) فكيف ساغ لعميد الأدب أن يروِّج لهذا الخطأ وهو عميد أدب ؟!

إن الغاية تبرر الوسيلة ، وتُزال من أجلها الموانع . ولما تمكن فى نفوس هؤلاء الحاقدين حب الإضرار بالإسلام وحضارته ، والإساءة إلى لغة التنزيل والنبوة ، تنكروا لكل البدائه ، ومَن يخطب الحسناء لم يغلها المهر كما قال الشاعر . والحسناء المخطوبة هى حضارة الغرب والارتماء فى أحضانها بل مخالبها إن أردنا الدقة فى الوصف .

ولم يقف الأمر عند حد أستاذ الجيل « لطفى » وتلميذه البار « طه » . بل إن

خصوم الإسلام وفى مقدمتهم الإنجليز استطاعوا أن يُجنِّدوا مؤسسات ذات خطر لهدم اللغة العربية إلى جانب الأفراد من أمثال أحمد لطفى ، وطه حسين ، ولويس عوض ، وسلامة موسى ، وعبد العزيز فهمى ، وتوفيق الحكيم ، وجبران خليل جبران - من شعراء المهجر ، فقد جنَّدوا جريدة المؤيد والمقتطف ، ومجلة الهلال ، وكوكب الشرق الوفدية ، كما جنَّدوا مجمع اللغة العربية نفسه الذى أنشئ لحماية العربية جنَّدوه لهدم اللغة العربية واشتركت مجلته الحولية بنشر مقالات لإسكندر المعلوف وابنه عيسى اللذين كانا يمجدان العامية ويدعوان إلى اتخاذها لغة صحافة وفن وأدب ، ويسخران من اللغة العربية الفصحى ، ويقولان إنها سبب تخلف العرب والمسلمين ؟! كما جنَّدوا جامعة الدول العربية لهدم الفصحى بدليل أن هذه الجامعة استدعت أنيس فريحة ليلقى محاضرات حول دراسة الأسلوب واللهجات . وبعد إلقائها جمعتها فى كتاب مطبوع ، وأنيس فريحة تقدَّم الحديث عنه وعن عدائه للإسلام والعروبة .

وإذا أمكن فراجِعْ مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الأول : شعبان ١٣٥٣ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٤ م) والجزء الثالث شعبان ١٣٥٥ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٦ م) ، والجزء الرابع شعبان ١٣٥٦ هـ (الموافق أكتوبر ١٩٣٧ م) .

والهلال عدد ١٥ مارس ١٩٠٢ . ولا نريد بذكر هذه الإشارات إلا أن نضع بين يدى القارىء بعضاً من الأدلة على أن الاستعمار الإنجليزى نجح أيما نجاح فى تسخير قوى ومؤسسات وطنية لخدمة أغراضه ضد الإسلام ولغته ، وأن مصر لم تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً أمام سيطرته . صحيح أن هذه الدعوات وجدت مَن يتصدى لها من أبناء الأمة مثل مصطفى صادق الرافعى وعباس محمود العقاد وشكيب أرسلان من الأدباء والمفكرين ، وشوقى وحافظ وغيرهما من الشعراء ، كما كان الأزهر وعلماؤه يقومون بواجبهم نحو حماية اللغة والدين .

* *

● خطورة هذه المحاولات :

لو كان قد قدَّر الله لهذه المحاولات نجاحاً كاملاً لترتب عليه محظوران شديدا الخطورة إلى أبعد مدى . وهما :

أولاً : لو طُبِّقت طريقة لطفى وطه فى الكتابة وهى أن الكلمة تُكتب كما تُنطق على نحو ما مرَّ فى « محمدٌ = موحامادون » على القرآن الكريم لكان ذلك أشنع تحريف ترتكبه الأمة باختيارها نحو كتاب ربها . تحريف فى الرسم يتبعه تحريف فى المعنى فى بعض الأحيان وتحريف فى النطق يُذهب بجلال القرآن وروعته .

ثانياً : وإذا لم تُطبَّق هذه الطريقة على القرآن وقد أصبحت هى السائدة فى كتابة ما عدا القرآن ترتب على ذلك عزل الأمة عن كتاب ربها . وكِلاَ الأمرين مطلوب عزيز المنال لدى خصوم الإسلام .

وليست الخطورة كانت ستقف عند هذا الحد . بل هذا جانب منها . ولك أن تتصور آماداً أخرى للخسران الذى كان ستبوء به الأمة لو أطاعت دعاوى أولئك الموسوسين المخدوعين :

فتراث الأمة كله سواء المخطوط منه والمطبوع من كتب التفسير والحديث والفقه وأصول الفقه واللغة والأدب والسيرة والتاريخ والعقائد والفلسفة والجغرافيا والرياضيات والطب وسائر العلوم والفنون ، كل هذه المصادر مدوَّنه باللغة العربية الفصحى وبالرسم العربى . فلو كانت الأمة قبلت العمل بتلك الدعوات الهدَّامة فإما أن تعيد كتابة تراثها كله وهى فى حاجة إليه بالعامية أو بطريقة لطفى وطه ، وهذا أمر صعب المنال ولو باعت الأمة كل أملاكها ما تحقق لها ما تريد .

وإذا أهملت تراثها فقدت أصالتها ووعيها وصارت كالمولود الذى لا يعرف له أباً ولا أماً . وكِلاَ الأمرين - كذلك - مطلب عزيز المنال لدى خصوم الإسلام .

إن المسألة كلها تدور حول سحق الحضارة الإسلامية ودفنها وهى حية ، هذا هو الأمل الذى كرّس الأوربيون كل جهودهم للوصول إليه ، وجنّدوا ما استطاعوا من قُوَى وطنية لخدمة أغراضهم فيه .

* *

● خطر تعدد اللهجات :

يدرك الغربيون أن من أكبر العوامل فى توحيد الشعوب الإسلامية بَلْه الإسلام نفسه هى اللغة العربية الفصحى ، وفى ذلك يقول « جب » الإنجليزى فى تعديد عوامل الوحدة الإسلامية :

« إن من أهم مظاهرها الحروف العربية التى تُستعمل فى سائر العالَم الإسلامى ، واللغة العربية التى هى لغته الثقافية الوحيدة والاشتراك فى كثير من الكلمات الإصطلاحية العربية الأصل » (انظر كتابه : إلى أين يتجه الإسلام ، ص ٢٠) .

معنى هذا أن خصوم الإسلام يعلمون تماماً أن شيوع اللهجات المحلية كفيل بتصدع الوحدة الإسلامية ، ولذلك أفسدوا اللغة العربية الفصيحة فى كل بلد إسلامى تمت لهم السيطرة عليه : فى مصر ، وفى شمال غرب إفريقيا ، وفى بلاد الشام وفى العراق . ونتج عن ذلك التصدع الخطير فى الوحدة الإسلامية ، وقد استفاد خصوم الإسلام - وبلا شك - من الأوضاع الراهنة التى يمر بها العالَم الإسلامى . وإذا رجعتَ إلى المحاولات الأولى التى قام بها الرواد الاستعماريون من التآمر على اللغة العربية الفصحى ظهر لك فى جلاء أن القوم كانوا يفترضون فينا السذاجة والبله وهم يزينون لنا مهاوى الهلاك التى حفروها بأيديهم . فسموا تدمير اللغة العربية إصلاحاً وتيسيراً ؟ وقالوا لنا بصوت جهورى أن سبب تخلفكم هو تمسككم بلغتكم الفصحى ، وللأسف الشديد تحول ذلك الافتراض بوجود البله والسذاجة فينا إلى حقيقة واقعة . فقد وجدوا

فينا مَنْ يصدقهم ويتحمس لتحقيق مدعياتهم . أو على حد تعبير القرآن العظيم : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ (١) ولا حول ولا قوّة إلا باللّه العلى العظيم .

*

● الإيمان بالقضاء والقَدَر :

من أصول الإيمان باللّه : الإيمان بقضاء اللّه وقدره . وقد جاء فى الحديث الصحيح وهو الحديث الذى دار بين صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم ، وبين جبريل عليه السلام ، حين جاء إلى الرسول ﷺ فى صورة إنسان ، وكان حول النبى ﷺ جمع من أصحابه . ودار الحديث فى صورة أسئلة من جبريل وأجوبة من صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ولم يكن الحاضرون يعرفون أن السائل هو جبريل إلا بعد انصرافه ، حيث قال لهم صلى اللّه عليه وسلم : « فإنه جبريل جاء يعلمكم دينكم » .

فى هذا الحديث سأل جبريل عليه السلام فقال : « فأخْبِرنى عن الإيمان » ؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم : « أن تؤمن باللّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقَدَر خيره وشره » .

فالإيمان بالقَدَر أصل أصيل من حقيقة الإيمان المنجى باللّه كالإيمان بالملائكة والكتب المنزّلة والرسل واليوم الآخر .

وليس الإيمان بالقَدَر شرط كمال فى الإيمان باللّه . بل هو شرط تحقيق للإيمان نفسه فمَنْ لم يؤمن بقضاء اللّه وقَدَره فلا عبرة بإيمانه إذ أن الكفر بالقَدَر كفر باللّه نفسه ، وتكذيب بما أنزل فى كتابه ، وبما جاء به رسله .

وقد بدأنا بـ « الحديث » قبل القرآن الكريم ، لأن فيه تصريحاً بوجوب الإيمان بالقَدَر . وقد أشارت بعض الآيات الحكيمة إلى هذه الحقيقة . منها قوله تعالى :

---

(١) التوبة : ٤٧

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ [1] ، وقوله جَلَّ ذِكره : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [2] .

هذه هى منزلة الإيمان بالقَدَر . ومع هذا فإن أوروبا فى مواجهتها للإسلام ، ومحاولاتها صد المسلمين عنه ، وتنفيرهم منه سلّطت مستشرقيها ومبشّريها أن يروّجوا بين المسلمين لمقولة موغلة فى البطلان . هى أن سبب تخلف المسلمين هو إيمانهم بالقَدَر، لأنه أقعدهم عن العمل والجِد والمثابرة وخلق فيهم روح الاسترخاء وتثبيط الهمم ، اعتماداً على « أن ما قُدِّر سيكون » فلا العمل مفيد إذن ، ولا الخمول والكسل مضر ؟! وإذا كان مصدر المقولة هو الغرب الصليبى . فإن مقولة مماثلة صدرت عن المعسكر الشرقى الشيوعى ، وهى أن الدين مخدِّر أو هو أفيون الشعوب كما كان يقول « ماركس » فى محاربته للدين مطلقاً . ولكن هذه المقولة قفزت إلى العالَم الإسلامى عن طريق عملاء الشيوعية مع تبديل فى العبارة زادها شناعة وقبحاً « الدين خرافة » أو « خرافة الميتافيزيقيا » أى الأمور الغيبية كالإيمان باللّه والحياة الآخرة [3] .

يقول المستشرق الفرنسى « كيمون » فى كتابه « باثولوچيا الإسلام » : « إن الديانة المحمدية جذام تفشّى بين الناس ، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً ، بل هى مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولى يبعث الإنسان على الخمول والكسل ... » .

وكذلك فإن المستشرق « هانونو » المستشرق الفرنسى ، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية روّج كثيراً أن فكرة الإيمان بالقَدَر هو سبب تخلف المسلمين ؟! وأن الإيمان بالقضاء والقَدَر معناه الاستسلام والخنوع . وقد تصدّى للرد عليه

---

(١) التوبة : ٥١ (٢) الأنعام : ٣٨

(٣) انظر جريدة الجمهورية العدد الصادر بتاريخ ١٥ سبتمبر ١٩٥٥ تجد فيها مقالاً عن فشو هذه الفكرة بين طلاّب جامعتى القاهرة وعين شمس .

الشيخ محمد عبده فى ثلاث مقالات يمكن الاطلاع عليها فى « تاريخ الأستاذ الإمام » لرشيد رضا [١] .

وقد تلقف هذه المقولة بعض الكاتبين . ومن ذلك ما كتبه الأستاذ « محمد حسنين هيكل » فى إحدى مقالاته « بصراحة » التى كان يكتبها بجريدة الأهرام فى أواخر رياسته لتحريرها ومجلس إدارتها قبيل حرب العاشر من رمضان (عام ١٩٧٣ م) فقد قال وهو يرصد المعدّات التى يجب استعمالها فى مواجهة حرب مع إسرائيل : إنه لا يعوّل - أساسياً - على العناية الإلهية ؟! بل هى - عنده - رصيد إضافى (؟!) .

ومنها ما كتبه الدكتور « فؤاد زكريا » بعد العاشر من رمضان من أن النصر لم يتحقق بقوى غيبية - يعنى الإيمان - بل بالإعداد الطيب للحرب ، ومهارة التخطيط وحسن تدريب الجنود . وقد نُشِرَ هذا فى مقال قصير بجريدة الأهرام كذلك .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن كثيراً من المحاولات - قبلاً وبعداً - أخذت تُشيع هذه الفكرة عند المؤلفين وكُتّاب القصص وغيرهم . وقد عرضنا فى فصول آتية لبعض النماذج .

وإذا كان الهدف من ذكر هذه الفكرة هو رصد الوسائل التى واجهت أوروبا الإسلام من خلالها فى العصر الحديث ، دون التعرض لمناقشة هذه الوسائل من حيث الصواب والخطأ ، فإننا مضطرون أن نقف وقفة قصيرة ناقدة لهذه الدعوى المخرِّبة لعقائد المسلمين ، ليكون القارىء على بصيرة مما يقال عن عقيدته ودينه .

* *

● لاصلة لها بالتخلف :

إن عقيدة الإيمان بالقضاء والقَدَر من المسائل التى عرض لها الفكر الإنسانى قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، وخاض حولها الفلاسفة والمفكرون فى كل عصر

---

(١) الجزء الثانى ص : ٤١٥ - ٤٣٢

وبيئة ، واعتبروها مشكلة من مشكلات الوجود لها مساس بعدالة اللّه سبحانه وتعالى ، والذى نوجز تسجيله - هنا - أن الإيمان بالقضاء والقَدَر كما قرره الإسلام لا علاقة له بتخلف المسلمين لا من قريب ولا من بعيد .

فالمسلمون فى الصدر الأول للإسلام كانوا أعظم من مسلمى العصر إيماناً بقضاء اللّه وقَدَره . ولم يُقعدهم ذلك الإيمان عن الأخذ بالأسباب والعمل الجاد المثابر . ولم يمض طويل وقت حتى قهروا عروش الجهل والظلم والطغيان ونشروا الحق فى ربوع الأرض كلها .

ثم جاء المسلمون من بعدهم وأكبُّوا على الدرس والبحث فصاروا منارات هدًى فى مختلف العلوم والفنون النظرية والعملية معاً ، ولا تزال حركة البحث العلمى تشيد بجهود العلماء المسلمين فى القرون السبعة الأولى للهجرة المباركة مثل : البيرونى ، والمسعودى ، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن الهيثم ، والرازى ، والغزالى ، والفارابى ، والكندى وغيرهم . وللقارىء أن يعود إلى ما لخصناه عن الدكتور « چورچ سارتون » حيث سجَّل بكل فخر أثر العلماء المسلمين فى البعث الحضارى الإنسانى طوال سبعة قرون من القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادى . هؤلاء العلماء الأفذاذ كانوا مؤمنين بالقضاء والقَدَر إيمانهم باللّه . ولم يُقعدهم إيمانهم عن أن يكونوا أساتذة للعالَم فى مختلف العلوم والفنون .

إن أوروبا تعرف أسباب التخلف الحقيقية عند مسلمى العصر ، ولكنها تعكس الحقائق ما دامت الفرصة مواتية للنَيْل من الإسلام ، إن من أسباب تخلف مسلمى العصر هى أوروبا نفسها ، فقد شغلت العالَم الإسلامى بالحروب والغارات واحتلال بلاده والسطو على ثرواتها ، كما شغلتهم بالآفة اللعينة المسماة « إسرائيل » تلك الجرثومة التى تنخر فى جسم العالَم العربى الإسلامى كل صباح ومساء . أما البلاد الإسلامية غير العربية فلم يسلم بلد واحد منها من الكابوس الاستعمارى اللعين . ولو أن العالَم الإسلامى كان بمنأى عن أوروبا وأخطارها ، وفاق لنفسه خلال المائتى سنة الماضية لكان له وضع آخر غير الذى هو فيه الآن . ولنفض عنه غبار التخلف ونافس أوروبا فى كل مجال ؟! وهذا هو

ما تخشاه أوروبا وتعمل له بليون حساب ! إن أعداء الإسلام يعرفون هذا جيداً ، ولكنهم يتجاهلونه لأن فى هذا التجاهل يمكن ترويج مدعياتهم وأباطيلهم ضد الإسلام .

والمسلم - حسب مبادىء دينه - يعمل ويجِّد غير متكل على القَدَر ويبذل قصارى جهده فى الأخذ بالأسباب . فإن نجح فى مسعاه فلا يأخذه الغرور والبطر ، وإن تخلّف ما يرجوه مع بذل الجهد فلا يقتله الحزن على خيبة المسعى . وعلى هذا فإن الإيمان بالقَدَر يقى المسلم من آفتين قاتلتين : آفة الغرور والبطر والاستعلاء بغير حق . وآفة التندم والتحسر عند خيبة الرجاء . هذا هو - فى إيجاز - المعنى السامى للإيمان بالقضاء والقَدَر . وفى القرآن الكريم آيات تؤكد هذا المعنى وترسخه فى القلوب المؤمنة بالله ففى سورة آل عمران جاء قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) . وفى سورة الحديد جاء قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (٢) .

هذه هى حقيقة الإيمان بالقضاء والقَدَر ، حقيقة تبعث فى المسلم روح القوة والشموخ ، وتجنبه مهاوى الضعف والندم فما أبعدها عن الإغراء بالكسل والخمول . وآيات القرآن حافلة بالدعوة إلى العمل الصالح للدين والدنيا وحافلة بالدعوة إلى استثمار الطاقات جواً وبراً وبحراً .

ولو كان الإسلام يُعاب بالدعوة إلى الذل والاستكانة .. وإلى الاسترخاء والخمول لما عملت أوروبا جاهدة على مواجهته والتربص به . وإشاعة الأراجيف حوله .

* * *

(١) آل عمران : ١٥٣ (٢) الحديد : ٢٢ - ٢٣